من بلاغة القَسَم في قصّة نوحٍ عليه السّلام

د. عبد العزيز بن صالح الدعيلج
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث :

تميّزت قصص الأنبياء في القرآن الكريم باستعمال أسلوب القسم في صدر الحديث عنها، تأكيدًا لما يأتي بعدها.. وقد رأيتُ أن أدرس القسم في قصّة نوحٍ عليه السلام، وأُبيّن سماته الّتي امتاز بها في الجملة القرآنيّة.. ذلك أنّه سار على استخدام صيغةٍ واحدةٍ من صيغ القسم في جميع مواضعه، وهي: الّلام المُقترنة بـ(قد). وقد وجدتُ من خلال النّظر والتّأمّل نوعًا من السّمات الدّقيقة برزت في أسلوب القسم في قصّة نوحٍ عليه السلام، في القرآن الكريم.. فعقدتُ العزم مُستعينًا بالله على الكتابة في هذا الموضوع ببحثٍ عنوانه: (من بلاغة القسَم في قصّة نوحٍ عليه السّلام)، وممّا حبّب الأمر إليَّ حُبُّ النّظر في تفسير كلام الله ﷻ، والعيش في رحاب ما كتبه المُفسِّرون في بيان معانيه، وإبراز أوجُه جماله وحُسنه، وطرائق بلاغته وبيانه.هذا، وقد جعلتُ البحث مُكوّنًا من: مُقدّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، في كُلِّ مبحثٍ مجموعةٌ من المطالب، ثمّ خاتمةٍ لهذا البحث، ووصفٍ لأهمّ مصادره ومراجعه.

المقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين، إله الأوّلين والآخِرين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمّدٍ الأمين، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنّ من إكرام الله - ﷻ- لهذه الأمّة أنْ أنزل عليها خيرَ كُتُبه، وأفضلها القرآن الكريم نورًا وهدًى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩]. والقرآن الكريم هو المُهيمن على الكتُب السّابقة، والحَكم عليها، جاء في ذروةٍ من البلاغة والإعجاز، فهو مُعجِزٌ في لفظه ومعناه، وفي إخباره عن الغُيوب السّابقة واللاّحقة، بل وفي حِكَمه وأحكامه وكلِّ ما جاء به. ومن خصائص القرآن الكريم الحديثُ عن الأُمم الماضية لِتسلية الرّسول - ﷺ- ممّا حلّ به من صُدود قومه وأذاهم، ولأخذ العبرة والعِظة من مصير الأُمم البائدة.

وقد تميّزت قصص الأنبياء في القرآن الكريم باستعمال أسلوب القسم في صدر الحديث عنها، تأكيدًا لما يأتي بعدها.. فرأيتُ أن أدرس القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام- ، وأُبيّن سماته الّتي امتاز بها في الجملة القرآنيّة.. ذلك أنّه سار على استخدام صيغةٍ واحدةٍ من صيغ القسم في جميع مواضعه، وهي: الّلام المُقترنة بـ(قد). وقد وجدتُ من خلال النّظر والتّأمّل نوعًا من السّمات الدّقيقة برزت في أسلوب القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام- في القرآن الكريم.. فعقدتُ العزم مُستعينًا بالله على الكتابة في هذا الموضوع ببحثٍ عنوانه: (من بلاغة القسَم في قصّة نوحٍ عليه السّلام)، وممّا حبّب الأمر إليَّ حُبُّ النّظر في تفسير كلام الله - ﷻ- ،

والعيش في رحاب ما كتبه المُفسِّرون في بيان معانيه، وإبراز أوجُه جماله وحُسنه، وطرائق بلاغته وبيانه.

هذا، وقد جعلتُ البحث مُكوَّنًا من: مُقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، في كُلِّ مبحثٍ مجموعةٌ من المطالب، ثمّ خاتمةٍ لهذا البحث، ووصفٍ لأهمّ مصادره ومراجعه.

وفي التّمهيد: تناولتُ مفهوم القسم، وأدواته، وموقع قصّة نوحٍ - عليه السلام - في القرآن الكريم، نوع القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - ، القيمة الفنّية للقسم في القرآن الكريم، معاني القسم في القرآن.

وفي المبحث الأوّل: تناولتُ خصائص جملة القسم في ضوء المطالب التّالية:

أ- صيغة القسَم.

ب- جملة القسم بين الإنشاء والخبر.

ج- الاتّحاد في جملة القسم.

د- ارتباط جملة القسم بما قبلها.

هـ- موقع جملة القسم: سواءٌ في صدر الآية أم في السّور المكّيّة.

وفي المبحث الثّاني: تناولتُ الأسرار البلاغيّة من القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - . وفيه حرصتُ على أن أُظهر الأسرار من مثل:

أ- الإيجاز.

ب- التّسلية والتّثبيت.

ج- التّأكيد.

د- العناية والاهتمام.

هـ- قوّة الحُجّة.

و- إثبات صدق النُّبوّة والرّدّ على المُكذِّبين.

ثمّ ختمتُ البحث بخاتمةٍ فيها ملخّصٌ له، ثمّ قائمةٍ للمصادر والمراجع.

هذا وأسأل الله - ﷻ - أن ينفع بهذا البحث كاتبه وقارئه، ويمنحه القبول.

وصلّى الله على نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

التّمهيد:

١- مفهوم القسم وأدواته:

القسم من فنون البلاغة، ومن أساليب الإنشاء غير الطّلبيّ، والإنشاء قسيم الخبر.

قِيل في تعريفه: إنه يمينٌ يُقسِم بها الحالِف ليُؤكّد بها شيئًا يُخبر عنه من إيجابٍ أو جحد[١].

وهو ضربٌ من ضروب التّأكيد في الكلام، يهدف إلى تثبيت الكلام وتقريره، ويُذكر ليتوكّد به خبرٌ آخر[٢].

والمُقسَم به، هو: الاسم الواقع بعد لفظ القسم، كلفظ الجلالة في قولنا: والله.

والمُقسَم عليه: هو الأمر المُراد توكيده بالحلف، نحو: الكتابة في قولنا: واللهِ لأَكتُبَنَّ.

ويُقسَم بحروفٍ أشهرها: الباء والوا والتّاء، وأفعال مثل: أقسَم وحلَفَ، وأسماء مثل: أيمن الله ولَعَمرُك...[٣].

٢- موقع قصة نوح - عليه السلام - في القرآن الكريم:

ذُكر "نوحٌ" - عليه السلام - في ثلاثةٍ وأربعين موضعًا من القرآن الكريم، وذُكرت قصته مُفصّلةً في القرآن في كثيرٍ من السور المكية بما يقرب من مائة آيةٍ، في كلٍّ من: الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، وذُكرت له سورةٌ خاصةٌ تُسمى (سورة نوح)، وكلها

---

(١)انظر: المُخصَّص لابن سيده: ٣/١١٠، شرح المُفصَّل: ٩/٩٠.

(٢)انظر: اللُّمع في العربيّة: ١٨٣.

(٣)انظر: شرح الرضي على الكافية: ق٢/ج٢/١١٩١.

تشير إلى بعثته، ورسالته وطريق دعوته، وإلى ما لا قاه من قومه من جحودٍ وعصيانٍ، وإلى صبره الطويل على الإيذاء، وإلى العذاب الذي حلَّ بالمكذبين، وهو "الغرق"، وإلى نجاة مَن آمن به.

٣- **نوعيّة القسم في قصة نوح - عليه السلام -:**

ينقسم القسم إلى قسمين[١]:

١- القسم الصريح أو الظاهر:

وهو ما كان القسم فيه صريحًا أو ظاهرًا، ويُستدلّ عليه بحرف القسم، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]. أو يُستدلّ عليه بفعل القسم، مثل قول الشاعر[٢]:

فأقسم لا أنساكَ ما ذرَّ شارِقٌ		وما خَبَّ آلٌ في مُلَمَّعَة قَفْرُ

أو يُستدلّ عليه بالحرف والفعل معًا كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ ...﴾ [الأنعام: ١٠٩].

أو يُستدلّ عليه بلفظٍ من ألفاظ القسم اسمًا كان أو مصدرًا، كقول امرئ القيس[٣]:

فقُلتُ يمينَ الله أبرحُ قاعِدًا		ولو قطّعوا رأسي لديك وأوصالي

٢- القسم المضمر:

وهو ما لم يُذكر معه القسم صريحًا أو ظاهرًا، ويشمل: ما دلّت عليه اللام

---

(١)انظر: أساليب القسم في اللغة العربية: ٣٢- ٣٧.

(٢)القائل: جميل بثينة: انظر: شرح ديوانه: ١٠٢، وهو من بحر الطويل.

(٣)ديوانه: ٣٢، وهو من بحر الطويل.

المقترنة بأداة الشرط ، أو بـ(قد) أو بالفعل المضارع المتصل بنون التوكيد. وهذا النوع هو أكثر أساليب القسم وروداً في القرآن الكريم ، وفي العصور الأدبية المختلفة[1].

على أن وُرود القسم في القرآن الكريم صريحًا أو غير صريحٍ تجاوز أربعمائة آيةٍ ، وفي أربعٍ وثمانين سورةً ، منها ستٌّ وستون سورةً مكيةً.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القسم في قصة نوحٍ - عليه السلام - من نوع القسم المُضمر بـ(لام القسم) و(قد). وهذا النوع هو أكثر أنواع القسم وُرودًا في كتاب الله - عز وجل - ، فقد ذُكر في مائةٍ وثلاثين آية مكية ، وفي ستّ وعشرين آية مدنية.

وقد ورد في القصص القرآني :

١ - القسم بالباء مرة واحدة[2].

٢ - القسم بالواو مرة واحدة[3].

٣- القسم بالتاء خمس مرات[4].

أما القسم بـ(اللام ، وقد) فقد ورد ذكره في أغلب القصص القرآني إلا أن قصة نوحٍ - عليه السلام - تميّزت بالتزام هذه الصيغة من القسم في جميع مواضع قصة نوحٍ الواردة في القرآن الكريم.

٤ - القيمة الفنية للقسم في القرآن :

يُعَدّ القسم من أرقى أساليب التوكيد ، وأبلغها لما فيه من زيادة المبنى. جاء في البرهان للزركشي نقلاً عن التنوخي في (أقصى القريب) : "إذا قصدوا مجرد الخبر

---

(١) انظر : أساليب القسم في اللغة العربية : ٣٧.

(٢)قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهلَهُ ﴾ . النمل : ٤٩.

(٣)قوله تعالى : ﴿...والّذي فطرنا فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ﴾. طه : ٧٢.

(٤)سورة يوسف : ٧٣ ، ٨٥ ، ٩١ ، ٩٥. سورة الأنبياء : ٥٧.

أتوا بالجملة الفعلية، وإن أكّدوا فبالاسمية ثم بإنّ ثم بها واللام، وقد تؤكّد الفعلية بـ(قد)، وإن احتيج بأكثر جيء بالقسم مع كلٍّ من الجملتين"[1].

وقال الطوسي[2]: "القسم جملة من الكلام يؤكّد بها الخبر، بما يجعله في قسم الصواب دون الخطأ، أو: في حيّز المتحقّق على طريقة: بالله إنه لكذا".

وصرّح الرازي بأن إيراد القسم للتأكيد المحض، كما هو عادة العرب[3]. كما صرّح ابن القيّم بأنه: قد يُراد بالقسم وكيده وتحقيقه، وقد يُراد به تحقيق المُقسم عليه[4].

وقال الزركشي[5]: "إنما جيء به لتوكيد المُقسَم عليه".

وقال السيوطي[6]: "إقسام الله... لإقامة الحجَّة وتأكيدها".

فسُبل التوكيد متنوّعة، ومتفاوتة، وأعلاها مرتبة أسلوب القسم لما فيه من تحقيق النبأ وتوكيده. بل إن أقوى درجات التوكيد أسلوب القسم، باعتباره أسلوبًا قائمًا بذاته، يتركب من جملتين منفصلتين في المعنى، وكل واحدة منهما تحمل معنى لا تحمله الأخرى، ومتصلتين اتصالا وثيقا لما بينهما من علاقة تلازم مثل علاقة الشرط بجزائه[7].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣٩١/٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن: ٤٠/١، وانظر: البرهان في علوم القرآن: ٤٤/٣، مباحث في علوم القرآن: ٣٠٠.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٠٣/٩، إمعان في أقسام القرآن: ٥.

(٤) انظر: التبيان في أقسام القرآن: ٤٠/١.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ٤٤/٣.

(٦) مُعتَرك الأقران: ٣٤١/١.

(٧) انظر: أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط في رحاب القرآن الكريم: ٢٣.

ولما للقسم من قوة في التوكيد، وأثر فعّال في الإثبات والتحقيق كَثُر وُروده في القرآن الكريم، وتنوعت مسالكه فيه.

وممن أشار إلى قيمة القسم في القرآن الكريم الأستاذ: عبد الحميد الفراهي في كتابه "إمعان في أقسام القرآن" فقد عقد فصلا لبعض ما في القسم من البلاغة ولطائفها، ذكر فيه أن في أسلوب القسم معاني مفيدة للاستدلال، مما يفتح عليه من البلاغة أبوابا، ويُلقي عليه من المحاسن جلبابا، ومما ذكره -إيجازا- [1]:

- إظهار التأكيد والجد في القول.
- القسم يبهم طريق الإنكار على الخصم.
- الإيجاز، وكون القسم من جوامع الكلم.
- إشراك السامع في استنباط الدليل.
- وضع الدليل في غير صورته كيلا يبادر المنكر إلى المخاصمة.
- تقدم ذكر الدليل على الدعوى.
- مما هو جدير بالذكر: أن القسم فيه عناية واهتمام بالمقسم عليه، وتعظيم للمقسم به، إضافة إلى الوضوح والبيان كما يشير إلى ذلك محمد الخضر حسين من أن في أسلوب القسم من التوكيد والتحقيق، للدلالة على أن المخبر عنه واضح بيّن لا يحتاج إلى قسم[2].

ومن أسراره في كلام الله تعالى ما يُؤتَى به لتأكيد الحكم، وتقوية الحجة، وسوق الأدلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضيحه.

---

(١)انظر: إمعان في أقسام القرآن: ٤٨- ٥٥.

(٢)انظر: بلاغة القرآن: ٤٥.

فالقسم من المؤكدات الشهيرة التي تمكن الشيء في النفس وتقوّيه، وهو طريقٌ "لدفع إنكار المنكرين أو إزالة شك الشاكين، وإذا كان المتكلم قد رأى أن المخاطب يشك في كلامه، أكد له القول بنوع من أنواع التوكيد، وأهمها: القسم"[1].

٥- معاني القسم في القرآن الكريم:

عند التأمل في أقسام القرآن الكريم يُلاحظ أنها تصيب معاني وأغراضا سامية تخدم السياق الذي وردت فيه، ومن ذلك:

أولا: إثبات الوحي والرسالة:

فهذا الدين القويم الذي جاء به الرُّسل الكرام إنما هو بوحي من الله تبارك وتعالى، وأنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز الحكيم، فهذا نوحٌ - عليه السلام - أوحي إليه برسالته، وأمره أن يبلغها لقومه ليهديهم إلى الحق، وليدعوهم إلى عبادة الله وحده، ولينذر المخالفين الذين يتعدون عن تقوى الله وطاعته بعذاب يوم عظيم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وفي سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥- ٢٦].

والرسول الكريم محمد - ﷺ - كان الأمين الصادق الموسوم بصفات الخير كلها، ثم لّما دعاهم إلى دين الله تعالى كالوا له اتهامات شنيعة فقالوا: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٤]. ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ

(١) دراسات في علوم القرآن: ٣٦٣.

قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١- ٤٢] و﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ.. ﴾ [الأنبياء: ٥].

فكان يأتيهم الرد الحاسم الذي يصفع مفترياتهم بالقسم الذي تضمّن آياته الساطعة[1].

ثانيا: الإشارة إلى وحدة الأديان السماوية:

فهذا القسم الذي يتصدر الآيات أن الدين كله من عند الله، من عهد نوحٍ -عليه السلام- إلى عهد محمد -ﷺ-، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله -عز وجل- رب الجميع.

وكثيرا ما جاء السياق المفتتح بالقسم مقررا لهذه الحقيقة كما في قوله -عز وجل-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨- ٤٩] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]. وهكذا تستمر قصص الأنبياء تترى بالذكر.. وبعد ذكر رسالتهم ودعوتهم تأتي الحقيقة الناصعة التي أكّدها القرآن، ألا وهي: وحدة الإله، ووحدة الأمة، فيقول جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ثالثا: بيان الغرض من دعوة الرسل:

فالدين كله واحد الهدف والأساس، والأنبياء دعوتهم واحدة وتبعا لهذا كان الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يركزون على هدف واحد وغاية واحدة، ألا وهي: (الاعتقاد بوحدانية الله). وكانت ترد قصص كثير من الأنبياء مكررة هذا

(١)انظر: يس: ١- ٢، النجم: ١- ٢، القلم: ١- ٢، الضحى: ١- ٣.

المبدأ على نحو ما جاء في سورة الأعراف ﴿... ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، ١٠٤].

رابعا: موقف الأمم من الأنبياء:

ومن معاني القسم في قصص الأنبياء: الإشارة إلى موقف الأمم من الأنبياء الكرام، فقد كان موقفا محفوفا بالعناد والاستكبار والتكذيب والجحود، فجاءت آيات القسم في هذا الشأن تسرية للرسول ﷺ - بذكر الأنبياء قبله- الذي عانى من قريش ما عناه حين لجّت في عنادها، واستطالت في إيذائها، وكان في ذلك إيقاظ لنفوس القوم، وحملها على أخذ العبرة مما أصاب الأمم قبلهم لما خالفوا أنبياءهم(١).

خامسا: الوعد بالنصر للرسل، والهلاك للمكذبين:

ومن معاني القسم في قصص الأنبياء بيان أن النصر في النهاية للرسل الكرام، وأن الهلاك والدمار للأمم المكذبين، وفي ذلك تقوية للأنبياء، وتطييب لخاطرهم، حيث يقرّ الله أعينهم في الدنيا بإهلاك أقوامهم المكذبين، وبانتصار مبدئهم، واعتزاز دعوتهم، وتغلبهم على أعداء الدين. "ومن هنا تبرز التسلية لصاحب الدعوة محمد ﷺ، وأثر ذلك في تثبيت فؤاده، وذلك لما يعلم الله ﷻ أن الدعوة إلى الإصلاح محفوفة بالمخاطر، محوطة بالأشواك، ومن شأن هذه المخاطر أن تكون ذريعة لتثبيط همة الداعي، وتسرّب اليأس إلى نفسه، فكان من الخير أن يُحال بين اليأس وبين قلب الرسول ﷺ، وأن يُريه ربه أن هذه العقبات التي تعترض الداعي، وتلك الشدائد التي يلاقيها المصلح لا مفرّ منها، وأنها سنة الله فيمن سبقه

(١)انظر: الحجر: ٨٠، الأنبياء: ٤١.

من الرسل"[1].

سادسا: التأكيد على صدق القرآن الكريم:

ومن معاني القسم: التأكيد على صدق القرآن الكريم لفتا للنظر، وتفنيدا لمزاعم القوم فيه، وقد أشار إلى ذلك ابن القيم، فهو يرى أن المقسم عليه هو أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، وقسمها إلى خمسة أنواع فقال[2]: "تارة يقسم الله على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان"[3].

سابعا: التأكيد على البعث والحشر والجزاء والوعد والوعيد:

وقد جعل الفخر الرازي أن المقسم عليه في غير السور التي افتتحت بحروف، هي الأصول الثلاثة: الوحدانية، والرسالة، والحشر[4].

ومن المعلوم أن المشركين كانوا يبالغون في إنكارهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] وقد كانوا يقولون سخرية واستهزاء: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] فرد الله تعالى عليهم بالقسم الذي تضمن آياته المحسوسة الماثلة، منبها أن صانع هذه الآيات لا يصعب عليه صنع البعث والنشور[5].

---

(١)سيكولوجية القصة في القرآن: ٣١٢.

(٢)التبيان في أقسام القرآن: ٤٩/١، وانظر: معترك الأقران: ٤٥٤/١، الإتقان: ١٧١/٢.

(٣)انظر: يس: ١- ٣، ص: ١- ٢، الزخرف: ١- ٣، الدخان: ١- ٣، ق: ١- ٢، الواقعة: ٧٥- ٧٧.

(٤)انظر: التفسير الكبير: ١٦٧/٢٨.

(٥)انظر: الذاريات: ١- ٦، الطور: ١- ٧، المرسلات: ١- ٧.

المبحث الأوّل: خصائص جملة القسم في قصّة نوحٍ عليه السّلام:

أ- صيغة القسم:

جاء القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - بصيغة (الّلام) الدّاخِلة على (قد)، أو: المُوطِّئة للقسم المحذوف.

وقد أفادت هذه الصيغة: التّأكيد على صدق ما يُذكر بعد القسم من أمر الرّسالة ونحوه، وإثبات صدقها، وصدق الرّسول صاحب الشّأن والقصّة ..

وقد ذُكر القسم بهذه الصّيغة في خمسة مواضع: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ...﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ...﴾ [هُود: ٢٥، والمؤمنون: ٢٣، والعنكبوت: ١٤]، ﴿ وَلَقَدْ نَادَنَا نُوحٌ ...﴾ [الصّافّات: ٧٥].

ومن أهدافها: تسلية الرّسول الكريم محمّدٍ - ﷺ - .

والقسم في القرآن الكريم يتنوّع إلى أنواع، هي:

١- أقسام صدرت من الله -سبحانه وتعالى- ابتداءً وإنشاءً[(١)]. وهذا النوع من القسم هو أكثر الأنواع ورودًا في كتاب الله -عزّ وجلّ-. وجميع القسم الوارد في قصة نوحٍ - عليه السلام - هو من هذا النوع.

٢- أقسام علّمها الله - سبحانه وتعالى - رسوله محمدًا - ﷺ - ، وأمَره بها[(٢)].

٣- أقسام حكاها القرآن عن الأنبياء والمؤمنين[(٣)].

٤- أقسام حكاها القرآن عن المنافقين والكافرين[(٤)].

---

(١) انظر على سبيل المثال: النساء ٦٥، الحِجر ٧٢، ٩٢، ٩٣، النحل ٥٦، مريم ٦٨، يس ١- ٢، الصافات ١- ٤.

(٢) انظر على سبيل المثال: يونس ٥٣، سبأ ٣، التغابن ٧.

(٣) انظر: الأنبياء: ٥٧، القصص: ١٧، الصافات: ٥٦، يوسف: ٧٣، ٨٥، ٩١، ٩٥، النور: ٦، ٨.

(٤) انظر: الأنعام: ٢٣، ٣٠، ١٠٩، الأعراف: ٤٩، إبراهيم: ٤٤، النمل: ٣٨، الشعراء: ٤٤.

٥- أقسام حكاها القرآن عن المنافقين عن إبليس[١].

وهنا: قد يتساءل البعض: ما معنى أن يقسم الحق تبارك وتعالى؟ وهل كان سبحانه في حاجة إلى تأكيد قوله ﷻ؟ فالقسم إن كان لأجل المؤمن.. فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فإن القسم لا يفيده؛ "لأنه أعمى البصر والبصيرة" متحجّر القلب والعقل.

والجواب: أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وبأساليبهم التي اعتادوها، ومن عادة العرب القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرا، قال القشيري: إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها. وذلك أن الحكم يُفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم،. فذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم النوعين حتى لا تبقى لهم حجة، فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ... ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال جلّ وعلا: ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ...﴾ [يونس: ٥٣][٢].

وذكر الرازي[٣] "أن الناس طبقات، فمنهم من لا يقرّ بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم؛ فإن الأعرابي الذي جاء الرسول ﷺ وسأله عن نبوته ورسالته، اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم، فكذا ها هنا".

وهذا صواب فإن النفوس تختلف في تقبّلها للحق، وانقيادها لنوره، فالنفس الصافية التي لم تدنس فطرتها بالرجس، تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه

---

(١)انظر: الأعراف: ١٦، ٢١، الحجر: ٢٩، ص: ٨٣.

(٢)انظر: البرهان في علوم القرآن: ٤١/٣، معترك الأقران: ٤٥٠/١، الإتقان: ١٦٩/٢.

(٣)التفسير الكبير: ٢٠٨/٢٥.

ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة. أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل، فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر، وصيغ التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد[1].

ب- **جملة القسم بين الإنشاء والخبر:**

الأصل في جملة القسم أن تكون إنشائيّةً. وهذا هو الغالب فيها. وإذا كانت إنشائيّةً فتكون مُجرَّدةً من الزّمان[2].

وإذا نظرنا إلى جملة القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - وجدناها إنشائيّةً غير طلبيّةٍ، ولفظها لفظ الخبر. أي: إنّها جاءت بصيغة اللّام المُوطِّئة للقسم إنشائيّة المعنى، لفظيّة الخبر.

أمّا جواب القسم، فهو جملةٌ خبريّة.

وإنّما جاز القسم بما كان على صيغة الخبر؛ لأنّه وقع موقع ما لا يكون إلاّ قسمًا من الصّيغة المُختصّة به. "وعَقْدُ الخبر خلافُ خلافِ عقد القسم؛ لأنك إذا قُلتَ: أحلف بالله على سبيل الخبر كان بمنزلة العدة بأنّك ستحلف، وكذلك إذا قلتَ: حلفتُ. فإنّك إنّما أخبرتَ أنّك قد أقسمتَ فيما مضى، وهو بمنزلة النّداء إذا قلتَ: يا زيد. فأنت مُنادٍ غير مُخبِرٍ. ولو قلتَ: أُنادي، أو: ناديتُ كان على خلاف معنى: يا زيد. فكذلك هذا في القسم. فكما أنّك إذا قلتَ: أُنادي، ونويتَ النّداء لم يكن النّداء مُخبرًا، فكذلك إذا قلتَ: أحلف بالله، أو: أُقسم، ونويتَ القسم كنتَ مُقسمًا ولم تكن مُخبِرًا، إلاّ أنّها وإن كانت جملةً بلفظ الخبر، والجملة عبارةٌ عن كلّ كلامٍ مستقلّ، فإنّ هذه الجملة لا تستقلّ بنفسها حتّى تُتبَع بما يُقسَم عليه،

(١)انظر: مباحث في علوم القرآن: ٣٠٠.

(٢)ذكر السّيوطيّ في: همع الهوامع: ٤٥/٢، أنّها قد تكون خبريّةً.

نحو: أُقسمُ بالله لأفعلنّ..."[1].

وكون القسم إنشاءً يُبهم طريق الإنكار على الخصم المُجادِل، فيهجم عليه من الكلام ما يُؤيّد القضيّة الّتي ستُطرح.

ج- **الاتّحاد في جملة القسم:**

وأعني بذلك: اتّحاد القسم وجوابه. فإن القسم وجوابه وإن كانا جملتين، فإنّهما لَمَّا أُكّدت إحداهما بالأخرى صارت كالجملة الواحدة المركّبة من جزأين: كالمبتدأ والخبر. فكما أنّك إذا ذكرتَ المبتدأ وحده لا يُفيد، أو الخبر وحده لا يُفيد، كذلك إذا ذكرتَ إحدى الجملتين دون الأخرى. لو قلتَ: أحلف بالله.. كان كقولكَ: زيد. وحده في عدم الفائدة[2].

ولَمَّا كان كلّ واحدٍ من القسم والمُقسَم عليه جملةً.. وكانت إحداهما لها تعلُّقٌ بالأخرى لم يكن بُدٌّ من روابط تربط إحداهما بالأخرى كرابط حرف الشّرطِ الشرطَ بالجزاء.. جعل للقسم روابط، هي: (اللام) و(إنّ) في حالة الإيجاب، و(ما) و(لا) في حالة النّفي. وإنّما وجب لهذه الحروف أن تقع جوابًا للقسم؛ لأنّه يستأنف بها الكلام.

د- **ارتباط جملة القسم بما قبلها:**

يتجلّى في جملة القسم معنى الرّبط لما قبلها من آياتٍ، حتّى إنّها تبهر بحُسن موقعها، وجمال بنائها، وحسن نسقها، وروعة نظامها، قمّة الإعجاز، وقوّة الرّبط فيما بينها وبين جاراتها..

والمُتأمِّل في آيات القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - يجد حسن العلاقة، وشدّة

(١)شرح المُفصَّل: ٩/٩٠- ٩١.

(٢)انظر: شرح المُفصَّل: ٩/٩٣.

الرّابطة لجملة القسم بما قبلها وما بعدها من جُمل، لإقامة الحُجّة على المشركين بالدّلائل الإقناعيّة والزّجريّة، ثمّ بدلائل شواهد التّاريخ، وأحوال الأُمم السّابقة الشّاهدة بتنظير ما أُوتيه النّبيّ - ﷺ - ، وبما أُوتيه سلفُه من الرُّسُل والأنبياء، وأنّه ما كان بدعًا من الرُّسل في دعوته إلى التّوحيد. تلك الدّعوة الّتي كذّبه المشركون لأجلها مع ما تخلّل ذلك من ذكرِ عناد الأقوام، وثبات الأقدام، والتّأييد من المَلِك العلاّم.

ولذا، فإنّ جملة القسم غالبًا ما تكون مسبوقةً بواو العطف لتُؤكّد معنى الرّبط لما قبلها من آيات. ذكر أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) في قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤] أنّ الواو في ﴿وَلَقَدْ﴾ "واو عطفٍ عطفتْ جملةً على جملة"[(١)].

ويرى بعض المفسّرين أنّ هذه الواو ابتدائيّةٌ، ابتُدئ بها كلامٌ جديدٌ، وغرضٌ آخر يتّصل به معنًى لا لفظًا[(٢)].

والأقرب أن الواو استئنافية[(٣)] وأن ما بعدها كلام مستأنف مسوق لتأييد التكليف الذي ألزم محمد ﷺ به أتباعه[(٤)]. و"واو الاستئناف.. هي التي يكون ما بعدها جملة غير متعلقة بما قبلها في المعنى، ولا مشاركة في الإعراب"[(٥)].

---

(١)البحر المحيط: ١٤٠/٧. وانظر: روح المعاني: ١٤٢/٢٠، المحرر الوجيز: ٣٦٨/١١.

(٢)انظر: إرشاد العقل السليم: ١٩٩/٤، ١٢٩/٦، وروح المعاني: ٣٥/١٢، ١٤٢/٢٠، وفتح القدير: ٤٩٣/٢.

(٣)انظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٣١٨/١٠.

(٤)انظر: إعراب القرآن وبيانه: ٦٧٨/٥.

(٥)البرهان في علوم القرآن: ٤٣٧/٤.

وليست واو العطف لفقدان شرطه وهو المشاركة في المعنى والإعراب. واستقلال الجملة ووضعها وضعا لا تحتاج فيه إلى ما قبلها من بلاغة الكلام، وليس معنى هذا أنها منبترة عما قبلها نهائيا؛ لأنها مع هذا الوضع المستقل موصولة بالتي قبلها وصلا قويا.

بذلك نستطيع أن نحكم على واو العطف بأنها الواو التي يعطف بها مضمون كلام، ولا يتوهم دخولها في حكم ما قبلها، "ونستطيع بعد ذلك أن نخطو خطوة واحدة في هذا الاتجاه، فنقول: إن الواو التي يسميها النحاة (واو الاستئناف) هي لعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر، أو عطف قصة على قصة، سواء أكانت بين الخبر والإنشاء، أو بين خبرين، أو بين إنشائين"[1] أو: من باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى أخرى مسوقة لآخر، والمقصود بالعطف المجموع، وشرطه المناسبة بين الغرضين[2].

فهذه الواو تجمع قصة على قصة؛ أي: مضمون كلام أو جمل مسوقة للغرض. فهذه الواو التي تصدرت قصة نوح - عليه السلام - ربطت هذه القصة بما قبلها رباطا وثيقا؛ فبداية سورة العنكبوت تحدثت عن الامتحان، ثم سار السياق فأشعرنا أن النصر في النهاية لأهل الإيمان، وجاءت بعد ذلك قصة نوح - عليه السلام - لترينا مقدار صبر الأنبياء، وقوة استثمارهم مع شدة الظروف، وكيف أن العاقبة تكون لهم. قال الفخر الرازي[3]: "وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لمّا بيّن التكليف وذكر أقسام المكلفين، ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم، وأوعد

(١)دلالات التراكيب: ٣٢٨.

(٢)انظر: حاشية السيد الشريف على المطول: ٢٦٣.

(٣)التفسير الكبير: ٣٦/٩، وانظر: الفتوحات الإلهية: ٣٦٩/٣.

الكافر والمنافق بالعذاب الأليم، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصا بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..﴾ [العنكبوت: ٣] ذكر من جملة من كلّف جماعة منهم نوح - عليه السلام - وقومه، ومنهم إبراهيم - عليه السلام - وغيرهما...".

وقال القمّي[1]: "ثم أجمل قصة نوح من بعده تصديقا لقوله: في أول السورة: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..﴾ [العنكبوت: ٣] وفيه تثبيت لقلب النبي -عليه الصلاة والسلام- ؛ كأنه قِيل: إن نوحا لبث ألف سنة تقريبا يدعو قومه ولم يؤمن منهم إلا قليل، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك، وكثرة عدد أمتك".

والغرض من ذلك تحقيق ما هدفت إليه من تحذير المخاطبين المعاندين بمن سبقهم، وما حاق بهم من فنون العذاب بأنْ: "ذكر أمثالاً لكفّار قريش من الأُمم السّابقة المُنكِرة لإرسال الله رُسُلاً، المُكذِّبة بما جاءتهم به الأنبياء عن الله..."[2].

وتسليةً للرسول - ﷺ - عمّا لَقِي منهم، وأنّ ما أُنزل إليه لا يُكذّب به إلاّ مَن لا يُؤبَه بتكذيبه، لكونِ هذا المُرسَل صاحب شريعةٍ سماويّةٍ ذات دلائل واضحةٍ، ولكون هذا الكتاب الّذي أُرسل به ذا حُجّةٍ قاطعة. كما أنّ من دلالات هذه التّسلية: الصّبر على ما يُلاقيه من قومه بأنّ تلك سُنّة الرُّسل السّابقين فلا تحزن.. وتأييده - عليه الصّلاةُ والسّلام - ، وتثبيته وتقوية قلبه على أداء الرّسالة، والصّبر على كُلِّ عارضٍ دونها[3].

وإذا كانت الواو لعطف الجُمل فتكون استئنافيّةً، إذ كانت المعطوف عليها

(١) غرائب القرآن: ٢٠/٨١.

(٢) البحر المحيط: ٦/٣٧٢.

(٣) انظر: التّفسير الكبير: ٨/١٥٠، والتّحرير والتّنوير: ١٩/٢٥.

استئنافًا.

بَقِي أن أُشير إلى أنَّ آية (الأعراف): ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ...﴾ [الأعراف: ٥٩]، جاءت بغير عطفٍ بالواو، وأمّا آية (هُود): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [هُود: ٢٥]، وآية (المؤمنون): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ... ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فقد جاءتا بواو العطف. والسّرّ في ذلك يتعلّق بسياق الآيات قبلها...

- فآية (الأعراف): لم يتقدّمها ذِكر إرسالٍ، ولا أمرٌ بدُعاء الخلق إلى الإيمان، ولا جملةٌ يناسبها عطف إرسال الأُمم، ودعاء الخلق إلى الإيمان، إنّما تقدّم قبلها ذِكر أصحاب الأعراف. ثمّ قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إلى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٤- ٥٨]. ثمّ ابتُدئت قصص الرّسل مع أُممهم، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ...﴾ وتتابع قصصهم.

- أمّا آية (هُود)، فقد تقدّم قبلها ذِكر رسالة محمّدٍ - ﷺ - ، وبذلك افتُتحت السّورة. قال - تعالى- : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هُود: ١- ٢]. ثمّ استمرّ ذِكر دعائهم وتحذيرهم من التّولّي، وما يَعقبه إن وقع منهم، ثمّ ذِكر تحدّيه - عليه السلام- إيّاهم بالقرآن، وطلبهم بمعارضته، والإتيان بعشر سُورٍ مثله في البلاغة، وعُلِيِّ النّظم، وإن كان ما يأتون به مُفترًى ليكون أسهل عليهم. ولم يَعدِل بالآي عن هذا الغرض وما يرجع إليه إلى ذِكر إرسال نوحٍ - عليه السلام- ، فوردت الآي

بذلك مَنْسُوقةً على ما تقدّمها بواو العطف على أتمّ مناسبة.

- وأمّا آية (المؤمنين)، فقد ورد قبلها ما يُناسب عطفها عليه. قال - تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، وبعدها: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، فذكّرهم بإيجادهم وانتقالهم مُنقلبين في أطوار، مُكتنِفين بمُتوالي إنعامه، مَنسوقًا بعض ذلك على بعضٍ، مُفتتحًا المطالع بما يتأتّى به القسَم من قوله: ﴿ لَقَدْ ﴾ تحكيمًا وإظهارًا للظّاهر من اكتناف إنعامه وإحسانه، ثمّ عطف على ذلك ما أنعم به من إرسال الرُّسل، فذكر أوّلهم إرسالاً إلى الخلق ليُناسب ما بُدئوا به من النّعم الأوّليّة، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ...﴾ [المؤمنون: ٢٣]. وكلّ ما ذُكر في هذه الآي نِعَمٌ مُتناسبةٌ، وآلاءٌ مُتواليةٌ. ولهذا لم يرد في هذه الآية ذِكر عذابٍ إلاّ بالإيماء الوجيز[1].

هـ- موقع جملة القسم:

١- مجيء القسم في صدر الآية:

يُلاحظ أنّ غالب الأقسام في قصّة نوحٍ - عليه السلام - خُصوصًا، وفي القرآن عُمومًا قد صُدِّرت بها الآيات، أو: ذُكرت لاستئناف الكلام؛ وذلك يُوجّه السّامع إلى الإصغاء؛ لأنّ المألوف عند النّاس أنّ الإنسان إذا شرع في أوّل كلامه

(١) انظر: مِلاك التّأويل: ١/٣٨٥- ٣٨٧، والبرهان في توجيه مُتشابه القرآن: ٧٥، والبحر المحيط: ٣٢٣/٤، وعناية القاضي: ٢٩٩/٤، وروح المعاني: ١٤٨/٨.

بالقسم يعلم السّامع أنّه يريد أن يتكلّم بكلامٍ عظيمٍ فيُصغي إليه، حيث يعلم أنّ الكلام ليس بمُعتَبرٍ. فبدأ - سبحانه- بالقسم، وأدرج الدّليل ليُقيم البرهان القاطع على ما يقوله، والحكيم إذا خاطب مَن يكون محلّ الغفلة، أو مَن يكونُ مشغول البال بشُغلٍ من الأشغال يُقدّم على الكلام المقصود شيئًا غيره ليلتفت المخاطَب بسببه إليه، ويُقبل بقلبه عليه، ثمّ يشرع في المقصود[1]. ولذلك جاءت آيات القسم كالمُنبِّهات للمُخاطَبين تنبيهًا لهم، وإيقاظًا لنظرهم.

٢- مجيء القسم في السّور المكّيّة:

ورد القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام- في سورٍ مكّيّةٍ، والقسم في غالبه يكثر في السُّور المكّيّة صريحًا أو غير صريحٍ؛ وذلك لقُرب العهد من العصر الجاهلي حيث تكثر الأيمان في أقوالهم.

وقد أُلِف العرب مجابهة الإنكار بالأيمان، فردّ القرآن على إنكارهم بمألوف كلامهم، والقرآن نزل بلُغة العرب، وما كان الله - عزّ وجلّ- ليُخاطبهم بغير أساليبهم، بل كانت لغة القرآن اللّغة الّتي تواكب واقعهم وأعمالهم وتصرّفاتهم، وَتتمشّى مع أحوالهم النّفسيّة والاجتماعيّة فيما ينفعهم ولا يضرّهم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[طه: ١١٣].

قال السّيوطيّ (ت٩١١هـ): [2] "القرآن نزل بلُغة العرب. ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكّد أمرًا...".

---

(١)انظر: التّفسير الكبير: ٢٤/٩.

(٢)الإتقان في علوم القرآن: ١٦٩/٢.

ولهذا قلّت الأقسام في العهد المدنيّ، ولم يُقسم - سبحانه- في العهد المدنيّ إلاّ في آياتٍ قليلةٍ منها قوله - تعالى- : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النّساء: ٦٥].

وكان طبعيًّا أن تُعالج الآيات المدنيّة حقيقة الإيمان، وإيضاح أحكام الشّريعة لَمَّا بدأ النّاس يدخلون في دين الله أفواجًا، بينما أقسم الله - ﷻ- في العهد المكّيّ في أكثر من ثلاثمائة وخمسين آية، لمُجابهة الإنكار، وحمل النّاس على الإيمان بالله وحده، والدّعوة إلى دينه، والتّمسّك بشريعته. "وإذا لاحظنا أن القرآن في دوره المكي كان يتعامل مع العرب تعاملا وجدانيا في محاولة لإثارة مشاعرهم وعواطفهم، ردا على أسلوبهم الانفعالي العصبي في التعامل معه، استطعنا أن نضيف سببا.. لانتشار القسم في الآيات المكية"[1].

* * *

(١)دراسات في علوم القرآن: ٦٩.

المبحث الثّاني: دلالات القسم وأسراره في قصّة نوحٍ عليه السّلام:

يبرز في القسم كثيرٌ من الدّلالات الجماليّة، والأسرار البلاغيّة، ومن أشهرها:

أ- الإيجاز:

يُلاحظ أنّ جملة القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - قد حُذفت، وبقي الجواب جملةً ماضويّةً مثبتةً رابطها ﴿لَقَدْ﴾. وجمهور النُّحاة يُقدّرون في مثل هذا وما أشبهه فعلاً مناسبًا من أفعال القسم، أو لفظ الجلالة. فكأنّ القول: (أُقسم لقد...) أو: (والله لقد...)[1]. وأنّه يجوز حذف جملة القسم المركّبة من فعل القسم وأداته والمُقسَم به، ويبقى الجواب دليلاً على القسم المحذوف[2]. وذكر ابن هشام أنّ جملة القسم تُحذف في ثلاثة مواضع، ومنها: إذا دخلت اللّام على (قد فعل...)[3].

وإذا كانت جملة القسم تحتوي على جملةٍ مؤكّدةٍ أولى، هي: فعل القسم، فإنّها أيضًا تحتوي على جملةٍ مُؤكّدةٍ ثانيةٍ، هي: المُقسَم عليها. كما أنّها تحتوي على اسمٍ مُقسَمٍ به، وهو اسم الله - عزّ وجلّ - ونحوه، "فالجملة المؤكّد بها هي القسم، والمؤكّدة هي المُقسَم عليها، والاسم الّذي يلصق به القسم ليُعظّم به ويُفخّم هو المُقسَم به"[4].

فأمّا الجملة الأولى: فهي محذوفةٌ في سياق القسم لقصّة نوحٍ - عليه السلام - ومثلها: المقسم به. ولم يبقَ إلاّ الجملة الثّالثة، وهي: جواب القسم في قوله:

---

(١)انظر: أساليب القسم في اللّغة العربيّة: ٣٦- ٣٨.

(٢)انظر: القسم في اللّغة وفي القرآن: ٥٥، ومُغني اللّبيب: ٦٤٥/٢.

(٣)انظر: مُغني اللّبيب: ٦٤٥/٢.

(٤)المُفصّل: ٣٤٤، وشرح المُفصّل: ٩٠/٩.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ...﴾ [1]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا ...﴾ [2]. والسّرّ في ذلك: قصد الإيجاز. فإنّ اللّفظ إذا قلّ يتراءى المعنى مجرّدًا عن حُجبه، فيزيده تنويرًا وتأثيرًا، كأنّه أرهف حدّه وقرّب بعده[3].

والعرب - لذكائهم- كانوا يحبّون الإيجاز، وطبيعة لُغتهم تساعدهم على ذلك، ولذلك لا ترى شيئًا من القرآن إلاّ ومعناه أوفر من لفظه. قال ابن القيّم (ت٧٥١هـ): [4] "والقسم لَمَّا كان يكثر في الكلام اختُصر. فصار فعل القسم يُحذف".

إذا عُرف أنّ القسم الموجود في قصّة نوح - عليه السلام- من نوع القسم المُضمر، فإنّ الأداة تكون فيه محذوفةً، وقد قدّرها أبو السُّعود (ت٩٥١هـ) بالباء لا الواو لئلاّ يجتمع واوان[5]. فيكون التقدير: وبالله... .

وجواب القسم محذوفٌ، واللّام الدّاخلة على (قد) وعلى (نعم) في قوله - تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصّافّات: ٧٥]، هي الموطّئة للقسم. قال الزّمخشريّ (ت٥٣٨هـ) :[6] "واللّام الدّاخلة على (نعم) جواب قسمٍ محذوفٍ، والمخصوص بالمدح محذوفٌ تقديره: فو الله لنِعم المجيبون نحن. والجمع دليل العظمة والكبرياء. والمعنى: أنّا أجبناه أحسن الإجابة وأوصلها إلى مُراده

(١)الأعراف: ٥٩ (وهي دون الواو)، والمؤمنون: ٢٣، والعنكبوت: ١٤.

(٢)الصّافّات: ٧٥.

(٣)انظر: إمعان في أقسام القرآن: ٩٦.

(٤)التّبيان في أقسام القرآن: ٤٨/١.

(٥)انظر: إرشاد العقل السّليم: ١٩٩/٤، وروح المعاني: ٣٥/١٢.

(٦)الكشّاف: ٣٠٣/٣.

وبُغيته من نُصرته على أعدائه، والانتقام منهم بأبلغ ما يكون".

وقد حُذف من القسم ما حُذف لقيام ما يدلّ عليه وهو: (اللام) وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه.

أمّا جواب القسم ﴿ نِعْمَ الْمُجِيْبُوْنَ ﴾، فهو يدلّ على أنّ الإجابة كانت من الأمور العظيمة، وبيانه من وُجوه:

- الأوّل: أنّه تعالى عبّر عن ذاته بصيغة الجمع، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا...﴾ ، والقادر العظيم لا يليق به إلاّ الإحسان العظيم.
- والثّاني: أنّه أعاد صيغة الجمع في قوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيْبُوْنَ﴾، وذلك أيضًا يدلّ على تعظيم تلك النّعمة، لاسيّما وقد وُصفت الإجابة بأنّها نعمت الإجابة.
- والثّالث: أنّ الفاء في قوله: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيْبُوْنَ ﴾يدلّ على أنّ حصول هذه الإجابة مُرتّبٌ على ذلك النّداء، والحكم المُرتّب على الوصف المناسب يقتضي كونه مُعلّلاً به، وهذا يدلّ على أنّ النّداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة[1].

ب- التّسلية والتّثبيت:

ومن دلالات القسم العظيمة في قصّة نوحٍ - عليه السلام - : التّسلية والتّثبيت للرّسول - ﷺ - . وهذه الدلالة وإن كانت عامة في القصص القرآني إلا أن قصة نوح قد تميزت بها في جميع سياقاتها. وقد أشار إلى هذا المعنى كثيرٌ من المفسّرين إبّان وُقوفهم على قصّة نوحٍ - عليه السلام - . ذلك أنّ الانتقال إلى ذكر هذه القصص

(١)انظر: التّفسير الكبير: ٣٣٩/٩.

إقبالٌ على النّبيّ - ﷺ - ، وتسليةٌ له عمّا لَقِي من كُفّار قريش من عنَتٍ ومشقّة. وفيه تعريضٌ بأنّ العاقبة والنّصر حليفان له، وأنّ الخسارة والهلاك لكلّ مَن عاداه وتنكّب عن صراط الله المستقيم.

ذكر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في ظلال قوله - تعالى- : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ...﴾ [الأعراف: ٥٩]، أنّ سياق القصّة فيه "تسليةٌ للرّسول - ﷺ - ، وتعليمٌ لأُمّته بتاريخ الأُمم الّتي قبلها من الأُمم المُرسَل إليهم ليَعلَم المُكذّبون من العرب أنّ لا غضاضة على محمّدٍ - ﷺ- ولا على رسالته من تكذيبهم، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرُّسل، بله أن يؤيّد زعمهم أنّه لو كان صادقًا في رسالته لأيّده الله بعقاب مُكذّبيه لَمَّا قالوا على سبيل التّهكّم أو الحِجاج: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ولِيَعلَم أهل الكتاب وغيرهم أنّ ما لقيه محمّدٌ - ﷺ- من قومه هو شنشنةُ أهل الشّقاوة تلقاء دعوة رُسُل الله"[1].

وذكر أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) أنّ الله - ﷻ- قصّ على نبيّنا محمّدٍ - ﷺ- أحوال الّذين كانوا قبله، وأحوال مَن بُعثوا إليهم على سبيل التّسلية له - ﷺ- والتّأسّي بهم. فبدأ بنوحٍ؛ إذ هو آدم الأصغر، وأوّل رسولٍ بُعث إلى مَن في الأرض وأمّته أدوم تكذيبًا له، وأقلّ استجابةً[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا

(١)التّحرير والتّنوير: ١٨٧/٨.

(٢)انظر: البحر المحيط: ٣٢٣/٤.

﴿خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ذكر المُفسّرون أنّ المقصود تسلية الرّسول - ﷺ- وتثبيته على ما كان عليه من مُكابدة ما يناله من الكُفّار، وإظهار ركاكة رأي الّذين يحسبون أنّهم يُتركون بلا ابتلاء[١].

وأمّا في آية (المؤمنون) : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فقد رأى الشّوكانيّ أنّ الله - ﷻ- لَمَّا ذكر الفلك أتبعه بذِكر نوحٍ؛ لأنّه أوّل مَن صنعه، وذكر ما صنعه قوم نوحٍ معه بسبب إهمالهم للتّفكّر في مخلوقات الله - سبحانه- ، والتّذكر لنعمه عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ...﴾ . وفي ذلك تعزيةٌ لرسول الله - ﷺ- ، وتسليةٌ له ببيان أنّ قوم غيره من الأنبياء كانوا يصنعون مع أنبيائهم ما يصنعه قومه معه[٢].

ومثله في آية (الصّافّات): ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصّافّات: ٧٥]، يبرز لنا معنى التّسلية والتّثبيت من خلال سياق الآيات. فقد أتبع التّذكير والتّسلية من جانب النّظر في آثار ما حلّ بالأُمم المُرسَل إليهم بتذكيرٍ وتسليةٍ من جانب الإخبار عن الرُّسُل الّذين كذّبهم قومهم وآذوهم، وكيف انتصر الله ليزيد رسوله - ﷺ- تثبيتًا، ويُلقم المشركين تبكيتًا[٣].

ج- التّأكيد:

يرى صاحب "القسم في اللغة وفي القرآن" أن القسم أبلغ أنواع التوكيد،

---

(١)انظر: المصدر السابق: ١٤٠/٧، وعناية القاضي: ٣٣٨/٧، وإرشاد العقل السّليم: ٣٣/٧.

(٢)انظر: فتح القدير: ٤٨١/٣.

(٣)انظر: التّحرير والتّنوير: ١٢٩/٢٣.

وأن المؤكدات تأتي معه تبعًا[1]. وقد تميّزت جملة القسم باحتضانها عددًا من المؤكّدات الّتي ساعدت على تأكيد مضمون جملة القسم، فقد اشتملت على (لام القسم)، وهي "وصلةٌ للقسم؛ لأنّ للقسم أدواتٍ تصله بالمُقسَم به، ولا يتّصل إلاّ ببعضها"[2]، و(قد) الدّاخلة على كلّ مُقسَمٍ به، أو كما يقول سيبويه (ت١٨٠هـ): [3] "على كلّ محلُوفٍ به". وتساعد على تقريب الماضي من الحال، وغالبًا ما يجتمع فيها ثلاثة معانٍ هي: التّحقيق، والتّوقّع، والتّقريب[4].

وغالبًا ما تقترن اللّام بـ(قد) لتأكيد الكلام وتثبيته أمام مَن يُلقى عليه، كما أنّ الفعل الّذي يأتي بعدها يكون ماضيًا مُثبتًا، "فإذا دخله - الماضي- (قد) كثُر دخول لام الابتداء عليه، نحو: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾ و ﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾؛ وذلك لأنّها تُقرِّب الماضي من الحال، فتصير كالمضارع مع تناسب معنى (اللّام) ومعنى (قد)؛ لأنّ في (قد) أيضًا معنى: التّحقيق والتّأكيد"[5].

يقول د.عبد الرحمن المطرودي[6]: "ومما تجب ملاحظته أن (قد) المقترنة باللام سواء أكان معها الواو أو لم يكن، تفيد الجملة الفعلية تأكيدا أقوى وأكثر من الجملة الفعلية المؤكدة بـ(قد) دون اللام".

ووصل (اللام) بـ(قد) في جانب القسم جيّدٌ بالغٌ كما يقول المُبرِّد

---

(١)راجع مقدمته في: القسم في اللغة وفي القرآن: ١٣.

(٢)المُقتَضب: ٣٣٣/٢.

(٣)الكتاب: ٤٩٦/٣.

(٤)انظر: شرح الرّضيّ على الكافية: ق٢/ج٢/١٣٨٩.

(٥)شرح الرّضيّ على الكافية: ق٢/ج٢/١٢٠٣.

(٦)أساليب التوكيد في القرآن: ١٠٣.

(ت٢٨٦هـ)[١]. وذلك أنّ أصل هذه اللّام الابتداء، ولام الابتداء لا تدخل على الماضي المحض، فأُتِيَ بـ(قد) معها - كما قلتُ- لأنّ (قد) تُقرّب من الحال، والّذي حسّن دخولها على الماضي دخول معنى الجواب فيها... وهو أحد المواضع الّتي تدخل فيها لام القسم على الجواب إذا كان الفعل ماضيًا صريحًا أو ظاهرًا كثُر وُروده في القرآن الكريم كثرةً تُميّزه عن القسم الصّريح، وخاصّةً ما دلّت عليه اللّام المقترنة بـ(قد).

تأتي جملة القسم، فتُؤكّد الكلام، وتزيده تقريرًا وتُبوتًا. قال السّيوطيّ (ت٩١١هـ) :[٢] "وفائدته توكيد الجملة الخبريّة وتحقيقها عند السّامع".

وذكر ابن القيّم (ت٧٥١هـ) أنّ القصد من القسم: تحقيق الخبر وتوكيده[٣].

وقال البابرتي (ت٧٨٦هـ) :[٤] "وأمّا القسم، فلأنّه إمّا لتوكيد الطّلب... وإمّا لتأكيد الخبر".

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، ومن شأن الواحد منهم إذا أراد أن يُؤكّد كلامه أقسم. والله - ﷻ- أراد أن يُؤكّد عليهم الحُجّة. قال الفخر الرّازي (ت٦٠٦هـ) :[٥] "والقرآن إنّما نزل بلغة العرب وإثبات أنّ المطلوب بالحلف واليمين طريقةٌ مألوفةٌ عند العرب".

وجملة القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام- برزت مُؤكّدةً لمضمونها. فاللّام الواردة في صدر آيات قصّة نوحٍ - عليه السلام- (لام القسم) و(قد) للتّحقيق. وكلاهما يدلّ على تأكيد الخبر، أو توكيد مضمون الجملة، وهو المفرَّع بالفاء

(١)انظر: المُقتَضب: ٣٣٤/٢.

(٢)معترك الأقران: ٣٤١/١. وانظر: الإتقان: ١٦٩/٢، والبرهان في علوم القرآن: ٤٠/٣.

(٣)انظر: التّبيان في أقسام القُرآن: ٤٦/١.

(٤)شرح التّلخيص: ٣٦٦.

(٥)التّفسير الكبير: ١٢١/٧.

بعدهما. وهذا التّأكيد له دلالاته البلاغيّة العظيمة في سياق آيات القسم:

- ففي قوله - تعالى- : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥- ٢٦]، أبرز ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) قيمة التّأكيد بهذين الحرفين (اللّام) و(قد)، فقال:[1] "وأكّدت الجملة بلام القسم و(قد) لأنّ المُخاطبين لَمَّا غفلوا عن الحذر ممّا بقوم نوحٍ مع مماثلة حالهم نزلوا منزلة المُنكِر لوُقوع رسالته".

وما ذكره ابن عاشور هو أحد أحوال ثلاثة[2] تصيب الكلام الخبري فيخرج عن مقتضى الظاهر: وهو تنزيل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار؛ فقد تقتضي الأحوال العدول عن مقتضى الظاهر، وإيراد الكلام على خلافه لاعتبارات يلحظها البليغ، ويدركها اللبيب، وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة.

وفي هذه الحالة يؤكد المتكلم خبره إلى المخاطب بعدد من المؤكدات تبعا لحالة القصور الإنكاري ليتأكد هو: أن أمارات الشك والإنكار قد زالت. فقد صورت الآية المخاطبين بصورة الغافل عن حقيقة الحذر مما جرى لقوم نوح - عليه السلام- من مصائب، وعدم الاتعاظ بالعذاب الذي وقع عليهم. فحالهم اقتضت هذا التأكيد في الآية الكريمة، ولا شك أنه مطابق لمقتضى الحال، حال الغافلين عن

---

(١) التّحرير والتّنوير: ١٢/٤٣.

(٢) ومن أحوال خروج الكلام عن مقتضى الظاهر:

أ- تنزيل غير السائل منزلة السائل، فيستحسن تأكيد الكلام له، إذا قدم إليه ما يلوّح له بحكم الخبر.

ب- تنزيل المنكر منزلة غير المنكر، فلا يؤكد له الكلام، إذا كان معه ما إن تأمله ارتدع عن الإنكار.

انظر: الإيضاح: ٢٤- ٢٦، التلخيص: ٤٢- ٤٣، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): ١٢٩.

التذكر وإن كان مخالفا لمقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر أن لا يؤكد الكلام لغير المنكر.

- وفي قوله - تعالى- : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، أبرز أبو السّعود (ت٩٥١هـ) قيمة جملة القسم وأثرها في الآية بقوله:[1] "شروعٌ في بيان افتتان الأنبياء - عليهم الصّلاة والسّلام- بأذيّة أُممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذيّة الكُفّار، تأكيدًا للإنكار على الّذين يحسبون أن يُتركوا بمجرّد الإيمان بلا ابتلاءٍ، وحثًّا لهم على الصّبر. فإنّ الأنبياء - عليهم الصّلاة والسّلام- حيث ابتُلوا بما أصابهم من جهة أُممهم من فنون المكاره، وصبروا عليها، فلأَنْ يصبر هؤلاء أولى وأحرى".

- وقد يحمل هذا التّأكيد تحذيرًا للمشركين بعد تنزيلهم منزلة مَن يُنكِر[2] أنّ نوحًا دعا فاستُجيب له كما يتّضح ذلك في قوله - تعالى- : ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصّافّات: ٧٥].

- وقد يحمل هذا التّأكيد تهديدًا للمشركين في صنيعهم مع رسول الله - ﷺ- . ذكر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) أنّ تصدير الجملة بلام القسم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، تأكيدٌ للمضمون التّهديديّ من القصّة[3]، فالمعنى: تأكيد الإرسال إلى نوحٍ - عليه السلام- وما عُقّب به؛ وذلك أنّ الاستدلال والامتنان

(١)إرشاد العقل السّليم: ٣٣/٧.

(٢)انظر: التّحرير والتّنوير: ١٣٠/٢٣.

(٣)انظر: المصدر السابق: ٤٠/١٨.

الّلذين تقدّما قصّة نوحٍ - عليه السلام - مُوجَّهَين إلى المشركين الّذين كفروا بالنّبيّ - ﷺ - ، واعتلّوا لذلك بأنّهم لا يؤمنون برسالة بشرٍ مثلهم، وسألوا إنزال ملائكةٍ، ووسموا الرّسول - ﷺ - بالجنون. فجاءت هذه الآيات مُهدِّدة لهم على صنيعهم، وكأنّهم لَمَّا شابهوا قوم نوحٍ ومَن جاء بعدهم ناسب أن يضرب لهم بقوم نوحٍ ؛ تحذيرًا لهم ممّا أصاب قوم نوحٍ من العذاب.

- وينبغي أن نلحظ الصّلة الوثيقة بين (الّلام) و(قد) لتحقيق التّأكيد لجملة القسم. فقد استشفّ الزّمخشريّ (ت٥٣٨هـ) قوّة الرّابطة بينهما لتحقيق ذلك، فقال:[1] "فإن قلتُ: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه الّلام إلاّ مع (قد)، وقلّ عنهم نحو قوله:[2]

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ		لَنَامُوا....؟

- قلتُ: إنّما كان ذلك لأنّ الجملة القسميّة لا تُساق إلاّ تأكيدًا للجملة المُقسَم عليها الّتي هي جوابها. فكانت مظنّةً لمعنى التّوقّع الّذي هو معنى (قد) عند استماع المُخاطَب كلمة القسم".

- وأكّد ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) ذلك بقوله:[3] "وكثُر في الكلام اقتران جملة القسم بـ(قد) لأنّ القسم يُهيّء السّامع لتوقّع خبرٍ مهمٍّ، فيُؤتَى بـ(قد) ؛ لأنّها تدلّ على تحقيق أمرٍ مُتوقَّعٍ كما أثبته الخليل والزّمخشريّ (ت٥٣٨هـ). والتّوقّع قد يكون توقُّعًا للمُخبَر به، وقد يكون توقُّعًا للمُخبِر كما هنا".

---

(١)الكشّاف: ٦٧/٢. وانظر: التّفسير الكبير: ٩٤/٥، والبحر المحيط: ٣٢٣/٤، وعناية القاضي: ٢٩٨/٤، وإرشاد العقل السّليم: ٢٣٥/٣، وروح المعاني: ١٤٨/٨.

(٢)ديوان امرئ القيس: ٣٢.

(٣)التّحرير والتّنوير: ١٨٨/٨.

د- العناية والاهتمام:

تصدير الجملة بالقسم فيه عنايةٌ واهتمامٌ بمضمونها. وقد أشار إلى هذه النُّكتة الألوسيّ في قوله - تعالى- : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، فذكر أنّ تصدير الجملة بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها[١].

ومن عادة العرب أن تُقدّر الحالِف. فإذا أقسم الحُرُّ المُهذّب على أمرٍ، فقد بالغ في إظهار الجدّ منه، ونفى عن نفسه الهزل.

هـ- قوّة الحُجّة:

من خلال التّأمّل في جملة القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام- يتّضح أنّها تعرض على السّامع أمرًا يدعوه إلى إعمال عقله، وربّما تسوقه إلى سمت الدّعوى بلطفٍ وتدرّجٍ، ولذلك فلا شيء من أساليب الكلام أصلح للتّصوير من أسلوب القسم. فكأنّ الّذي أقسمتَ به دَعوتَه كالشّاهد، فوقفتُه بين يدي السّامع والمُخاطب مُتمثّلاً[٢].

وكان من عادة العرب إذا سمعوا الرّجل يُقسم يعلمون أنّه سيقول كلامًا مهمًّا يجب الإصغاء إليه. قال القرطبي (٦٧١هـ): [٣] "القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يُؤكّد كلامه أقسم على كلامه؛ والله - تعالى- أراد أن يُؤكّد عليهم الحُجّة...".

---

(١)انظر: روح المعاني: ١٨/ ٢٤، وإرشاد العقل السّليم: ٦/ ١٢٩.

(٢)انظر: إمعانٌ في أقسام القرآن: ٥١.

(٣)الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٧٥.

وقال الفخر الرّازي (ت٦٠٦هـ) :[1] "فذكر القسم تأكيدًا.. لاسيّما والقرآن إنّما نزل بلغة العرب، وإثبات المطالب بالحلف. واليمين طريقةٌ مألوفةٌ عند العرب".

و- إثبات صدق النّبوّة والرّدّ على المُكذّبين:

ومن دلالات القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - التّأكيد على أمر الرّسالة، وصدق النّبوّة، وتزكية الرّسول - ﷺ - عمّا وصفوه به من الضّلال، والغواية، والسّحر، والشّعر، والكهانة، والجنون، وغير ذلك من المفتريات الباطلة الّتي كانت تدفعهم إلى الغيرة والعزّة بالإثم.. وفيه: تأكيدٌ على تكذيب الأُمم لرُسلهم، وما آل إليه أمرهم.

وفي استعمال أسلوب القسم المُضمر التّسريةُ عن الرّسول - ﷺ - الّذي عانى من قريش ما عانى حين لجّتْ في عنادها، واستطالت في إيذائها، وبعث روح اليقظة لنفوسِ القوم، وحملها على أخذ العبرة ممّا أصاب الأُمم قبلهم لَمَّا خالفوا أنبياءهم.

* * *

(١)التّفسير الكبير: ٣١٦/٩.

الخاتمة :

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله محمّدٍ، وبعد:

فإن ما ذكر من سمات في قصة نوح - عليه السلام - عن جانب القسم يشهد بقيمة هذا الفن العظيم في القرآن الكريم بعامّةٍ، وفي قصّة نوحٍ - عليه السلام - بخاصّةٍ، وصلاحيّته لتصوير المعنى، وإبراز الحدث.

فكان بذلك أداةً مؤثّرةً في جانب الرّسول - ﷺ - بتسليته والتّسرية عنه ممّا لحقه من قومه، وفي العذاب الّذي أصاب الأُمم قبله جرّاء مخالفتها أمر ربّها، وعصيان رُسله، ومن ثمَّ أخذ العبرة والعظة من قصص تلك الأُمم، والتّفكير في أحوالهم، وسدّ باب الجدل والخصومة على كلّ مُعاندٍ ضالٍّ.

ولقد حرص البحث على دراسة جملة القسم في قصّة نوحٍ - عليه السلام - دراسةً دقيقةً مُفصّلةً، تُعنى بتجلية خصائصها البلاغيّة وسماتها. فخرج البحث في: مُقدّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثين، وخاتمةٍ:

ففي التّمهيد: تناولتُ مفهوم القسم وأدواته، وموقع قصة نوح - عليه السلام - في القرآن الكريم، ونوع القسم في قصة نوح - عليه السلام - ، والقيمة الفنية للقسم في القرآن الكريم، ومعاني القسم في القرآن الكريم.

وفي المبحث الأوّل: تناولتُ خصائص جملة القسم في ضوء المطالب الآتية:

أ- صيغة القسم.

ب- جملة القسم بين الإنشاء والخبر.

ج- الاتّحاد في جملة القسم.

د- ارتباط جملة القسم بما قبلها.

هـ- موقع جملة القسم، سواءً أكانت في :

١- صدر الآية. ٢- أو في السّور المكّيّة وسرّ ذلك.

وفي المبحث الثّاني: تناولتُ دلالات جملة القسم وأسرارها في قصّة نوحٍ -عليه السلام- . ولاح لي من خلال الدّراسة هذه الدّلالات:

أ- الإيجاز.

ب- التّسلية والتّثبيت.

ج- التّأكيد.

د- العناية والاهتمام.

هـ- قوّة الحُجّة.

و- إثبات صدق النّبوّة والرّدّ على المُكذّبين.

ثمّ ختمتُ البحث بخاتمةٍ فيها: ملخّصٌ للبحث، وأبرز النّتائج، وبعده أهمّ المصادر والمراجع.

وختامًا أسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وُفّقتُ في تجلية هذا البحث وإبراز أسراره ولطائفه. والحمد لله أوّلاً وأخيرًا.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

- **الإتقان في علوم القرآن**، للسّيوطيّ، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبيّ وأولاده، مصر، ط٤، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- **أساليب التوكيد في القرآن الكريم**: عبد الرحمن المطرودي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٨٦م.
- **أساليب القسم في اللّغة العربيّة**، لكاظم فتحي الرّاوي، الجامعة المُستنصريّة، د.م.، ط١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- **أسلوب القسم واجتماعه مع الشّرط في رحاب القرآن الكريم**، لعلي أبو القاسم، جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٩٢م.
- **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، لمحيي الدّين الدّرويش، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٩، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- **إمعانٌ في أقسام القرآن**، لعبد الحميد الفراهيّ، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ.
- **الإيضاح**، للخطيب القزوينيّ، شرح وتعليق: محمّد عبد المنعم خفاجيّ، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، ط٤، ١٣٩٥هـ.
- **البرهان في توجيه متشابه القرآن**: محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: د.عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدّين الزّركشيّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
- **البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)**: د.فضل عباس، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **بلاغة القرآن**: محمد الخضر حسين، طبع ونشر: علي رضا التونسي، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- **التبيان في أقسام القرآن**: ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة

السعيدية، الرياض، د.ت.

- **تفسير أبي السُّعود (إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم)**، لأبي السُّعود العماديّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت.
- **تفسير البحر المحيط**، لأبي حيّان الأندلسيّ، دراسة وتحقيق: الشّيخ: عادل عبد الموجود والشّيخ: علي معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **تفسير التّحرير والتّنوير**، للعلاّمة الشّيخ: محمّد الطّاهر ابن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، ١٩٨٤م.
- **التّفسير الكبير**، للفخر الرّازيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- **التلخيص في علوم البلاغة**: جلال الدين القزويني، ضبط وشرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبيّ، ضبط وتعليق: الدّكتور: محمّد إبراهيم الحفناويّ، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**: محمود صافي، دار الرشيد، دمشق- بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **حاشية السيد الشريف على المطول**، المطبعة العثمانية، ١٣١٠هـ.
- **حاشية الشّهاب** الخفاجيّ (عناية القاضي وكفاية الرّاضي)، ضبط وتخريج: عبد الرّحمن المهديّ، دار الكُتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- **دراسات في علوم القرآن**: د.محمد بكر إسماعيل، دار المنار، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **دلالات التراكيب**: د.محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٤م.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني**، للعلاّمة: الآلوسيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت.

- **سيكولوجية القصة في القرآن**: د.التهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١م.
- **شرح التّلخيص**، للشّيخ: أكمل الدّين البابرتيّ، دراسة وتحقيق: الدّكتور: مصطفى رمضان صوفيه، المنشأة العامّة للنّشر والتّوزيع، طرابلس- ليبيا، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٨٣م.
- **شرح ديوان جميل بثينة**: شرح وتحقيق: عدنان زكي درويش، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- **شرح الرّضيّ على كافية ابن الحاجب**، تحقيق: الدّكتور: حسن بن محمّد الحفظيّ والدّكتور: يحيى بشير المصريّ، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- **شرح المُفصّل**، لموفّق الدّين يعيش بن علي بن يعيش، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- **غرائب القرآن**: الحسن بن محمد القمي النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، مصر، د.ت.
- **فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير**، لمحمّد بن علي الشّوكانيّ، عالم الكُتب، د.م.د.ت.
- **الفتوحات الإلهية**: سلمان بن عمر العجيلي (الجمل)، مطبعة الحلبي، مصر، د.ت.
- **القسم في اللّغة وفي القرآن**، لمحمّد المختار السّلاميّ، دار الغرب الإسلاميّ، د.م.، ط١، ١٩٩٩م.
- **الكتاب**، لسيبويه أبي بشر عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- **الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل**، للزّمخشريّ، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- **اللمع في العربية**: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د.حسين محمد محمد شرف، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- **مباحث في علوم القرآن**: د.مناع القطان، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- **المُخصّص**، لابن سيده علي بن إسماعيل، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: ابن عطية ألأندلسي، تحقيق: عبد الله الأنصاري وزميله، وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية، قطر، د.ت.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، للسّيوطيّ، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- **مغني اللّبيب عن كُتب الأعاريب**، لابن هشام الأنصاريّ، تحقيق: الدّكتور: مازن المبارك، ومحمّد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- **المُفصّل في علم العربيّة**، لأبي القاسم الزّمخشريّ، دار الجيل، بيروت، ط٢، د.ت.
- **المقتضب**، لأبي العبّاس المُبرّد، تحقيق: الدّكتور: محمّد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، ١٣٩٩هـ.
- **ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه باللّفظ من آي التّنزيل**، أحمد بن الزّبير الغرناطيّ، تحقيق: الدّكتور: محمود كامل أحمد، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- **همع الهوامع شرح جمع الجوامع**، للسّيوطيّ، تحقيق: الدّكتور: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلميّة، الكويت، د.ت.

* * *